إسلاميّة المعرفة وعلم التربية

إعداد

الدكتور عبدالحميد أبو سليمان

رئيس الجامعة الإسلاميّة العالميّة

كوالالمبور ، ماليزيا

إسلامية المعرفة وعلم التربية

في غمرة البحث عن مخرج والوصول الى حل، بعد أن أعيت المسلمين الحيل،واستعصى عليهم الحل لمشكلة ضعفهم وتخلفهم، بعد أن خاب أملهم وكلُّ سعيُهم، خلف طلب العلوم الفيزيائية والعسكرية والقانونية والسياسية والفلسفية، أقبلوا على علوم التربية والادارة والاقتصاد، ثم كان آخر ما أقبلوا عليه، هو علوم الاعلام.

وفي صحوة الفشل الذريع على جهود التغريب والتحديث ، من منظور غير إسلامي، وما أحدثه ذلك من ردٍّ فعل إسلامي في كيان الأمة، اتجهت أنظار المسلمين الى مفهوم الأصالة والتزام الإسلام في حياة الأمة ونظامها الاجتماعي ،طلباً للخلاص ، وتمكناً من القوة والقدرة. وكان من أهم مظاهر هذا التوجّه، العمل على إسلامية بعض العلوم الاجتماعية التطبيقية الهامة، وهي علوم الاقتصاد والاعلام وانشاء الاقسام ومراكز البحث العلمي لخدمة ذلك الغرض.

ولا شك أن الغاية من هذه الجهود هي غاية سليمة، ولكن من المهم ملاحظة أن هذين المجالين هما من مجالات الوسائل. ورغم أن صلاحهما مطلوب ، ولا يمكن للحياة الاسلامية أن تستقيم دون بنائهما، من منظور اسلامي، إلا أن أي جهد يبذل في مجالهما لن يمكّن المجتمع المسلم أن يجني ثماره، ما لم تستقم تربية الفرد المسلم، وما لم تستقم نشأته وتكوينه النفسي، وما لم يستقم تنظيم المجتمع المسلم وتصلح مؤسساته السياسية، وعندها يمكن أن يضع المجتمع المسلم امكاناته بقوة وفاعلية في خدمة غاياته وتوجهاته.

ولذلك يجب أن يحظى مجال التربية، والدراسات التربوية، ومجال التنظيم السياسي، والدراسات السياسية باهتمام جهود العاملين الاسلاميين في المعرفة

والحياة الاسلامية ، باعتبار ذلك أولوية تضاف إلى إسلاميّة مجال العلوم ، وبناء هذه المجالات والدراسات من منظور اسلامي، وإقامة المؤتمرات والبرامج والندوات العلمية ، وإنشاء مراكز الدراسات والاقسام العلمية للبحث والدراسة العلمية المتخصصة؛ حتى يمكن أن تقدم هذه العلومُ، نتيجة جهود العاملين فيها، الرؤيةَ الاسلاميةَ العلميةَ الصحيحةَ، التي تعين الأمة على إعادة بناء ناشئتها وطاقاتها ومقدراتها ومؤسساتها الاجتماعية وبشكل سليم رشيد فعال.

ولعل من المفيد، وقد بلغنا هذه المرحلة من توضيح أهمية فكرة إسلامية هذه المجالات والعلوم، أن نوجه النظر الى بعض القضايا والمفاهيم الأساسية والتي يحسن بالدارسين في هذه المجالات التنبّه لها، لأنّ من أهم المعالم البارزة للشخصية الإسلامية، في عصورها المتأخرة، المغايرة والتناقض بين ما تدّعيه كوادرُ الأمة والعاملين فيها، وبين ما يتحقق من سلوك الأمة وطاقاتها وامكاناتها.

وعلى الرغم من أن المسلمين على قناعة راسخة بسمو الاسلام، وعلى الرغم من أن الامة الاسلامية هي حاملة رسالة الاسلام للناس، وعلى الرغم من أن مبادئ الاسلام وقيمه وتصوراته الكلية، لا تدانيها قيم ولا تصورات كلية أخرى، ومع ذلك فالأمة الإسلامية لا تتمثل الاسلام او تعكسه في حياتها ولا أنظمتها ولا في ممارستها بشكل جيد او مقبول، بل إنه لا يكاد يتجسد للأمة كيان ولا يكاد الإسلام، إلا أن يكون في حياة المسلمين اسطورة مثالية ، يتغنون بها ويحلمون باليوم الذي ستسطع عليهم وعلى الانسانية شمسه الدافئة الوضاءة المشرقة.

وحتى الممارسات الفردية والتجسد المحدود للقيم والغايات والصفات والسلوك الاسلامي الصحيح في حياة المسلمين، فإنه كثيراً ما يكون على غير نمط متكامل سليم؛ مما يؤدي الى اختلال التركيب وجهل التناول، الى ان تفقد تلك النماذج والصفات قدرتها على التأثير والعطاء. وكثيراً ما تنجم عنها نماذج مختلّة قاصرة عن صفات التكوين والأداء اللازم للشخصية الاسلامية الناجحة القادرة النافعة.

ولعل من المفيد أيضا، في هذه المرحلة من الحديث في المنهجية ، أنْ نركّز على بعض الجوانب الأساسية المهمّة البعيدة الغور، والتي تسهم في ظاهرة الأزمة الإسلامية، ومفارقات معدنها ودعواها وواقعها، والتي يبدو أن ما أصاب الفكر الاسلامي من قصور، وما أصاب العقل الاسلامي من الكبح والكبت والإرهاب، منعه في عصور التخلف والانحطاط والعزلة أن يتناولها او ينظر فيها او يلتفت اليها.

إنّ من يدرك حال الفكر الاسلامي التربوي في العصور المتأخرة وسطحيته ، يدرك أنّ حل معضلات التربية في المجتمع المسلم والتصدي لقضاياها بالعمق والجرأة والمصابرة والمعاناة اللازمة، لا يمكن أن يتم إلاّ بنشأة علم منهجي ودراسة علمية مستمرة، وهي غير التأملات الفكرية العشوائية المحدودة، التي لم يخل التاريخ الاسلامي منها، ولكن دون أن تزوّدَه بالقدرة والرؤية العلمية التربوية المطلوبة.

فرغم ان تأملات الفكر الاسلامي في قضايا التربية الاسلامية، تصور لنا الغايات الخيّرة التي يسعي اليها الاسلام، والتي يجب أن تُغرس في النفس المسلمة، لتكون اللبنة والنواة الصحيحة في بناء الأمة المسلمة والمجتمع المسلم، إلا أن غيبة الدراسة المنهجية العلمية عن ميدان العلوم السلوكية، أدت بالتالي إلى محدودية المعرفة العلمية الشمولية المفصلة المنظمة للفطرة البشرية وطبائعها وكيفية تكوينها ونموها والمراحل التي تمر بها، والتي لا تقل تطوراً ونمواً في حياة الفرد عن تطور الجسد ونموه، إنْ لم يكن نمو النفس وتطورها اكثر دقة وتعقيداً من نمو الجسد ، واشد حاجة للدراسة والفهم والرعاية والبناء والتقويم.

وبسبب النقص والقصور في المعالجة العلمية المنظمة لمجال التربية الاسلامية، نلاحظ أن غرس القيم والمبادىء والتصورات الاسلامية الاساسية في نفوس الناشئة، لا يتم بأسلوب يناسب حاجة تكوين نفوسهم، والمرحلة التي يمرون بها؛ وانما يتم علي نمط واحد. واذا كان هذا النمط يصلح لشيء منه، فانما يصلح للبالغين مبلغ الرجال، من أمثال أبناء قبائل العرب الذين اكتمل بناؤهم النفسي، وأراد الرسول صلى الله

عليه وسلم أن يوجِّه إليهم من الخطاب ما ينضج نفوسهم، وأن يبصِّرهم في خطابه عواقب إعراضهم ومكابرتهم وانصرافهم عن الحق، والإصرار على ما انطوت عليه نفوسهم، ونفوس زعمائهم، وبخاصة زعماء قريش وما جبلت عليه هذه النفوس من قوة وقسوة وكِبْر وجموح اتسم به خلق البداوة من أبناء الصحراء، بكل جدبها، وخشونة نمط الحياة فيها، ومخاطر العيش في ربوعها. ولذلك ارتفع صوت الوحي وصوت الرسول صلى الله عليه وسلم في وجوههم، يقرعهم، ويزجرهم، ويتهددهم، ويتوعدهم، وينذرهم عواقب الكبر والفحش والعدوان والافساد، فانضجت قوةُ هذا الخطابِ نفوسَهم القوية الشماء ورشّدتْها؛ فتحولوا من قبائل متوحشة شرسة كالسباع، تتمتع بالقوة والتيقظ في قوة وعنف، الى قبائل وجيوش ومجتمعات قوية منضبطة ذات رسالة ومفاهيم حضارية كونية سامية، مَيَّزَتْها عن سواها من القبائل الغازية وموجات الفتوحات البدوية البربرية على مر التاريخ، مثل موجات غزو قبائل المغول، وقبائل الجرمان وسواهم، من القبائل البدوية الغازية، فتميزت قبائل العرب التي انضج الاسلام رجالها بأنها قوة محررة حاملة رسالة ربانية وحضارة أسست على العدل والاصلاح والاعمار.

ومن المهم أن نلاحظ هنا أن أسلوب الخطاب ، الذي وجهه الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم الى قبائل العرب ورجالات قريش، من أمثال أبي لهب وأبي جهل، والذي لا تخطئه الأذن لشدته وقوته وجدية حجته التي تحتمها طبيعة الموقف، وطبيعة المخاطبين الخاصة، ومن كان على شاكلتهم من المستكبرين الغلاظ العتاة، هو الغالب على أسلوب الخطاب الذي ما زال كثير من المربين المسلمين يوجهونه الى كافة الناس، لأغراض الوعظ والتربية، دون تفرقة تذكر بين أحوال المخاطبين حتى في خطاب الناشئة من أبناء المسلمين، بغرض التربية والتعليم الاسلامي دون وعي منهم، على اختلاف حاجة الصغير وتكوينه والمراحل التي يمر بها بناؤه وتكوينه النفسي والذهني، واختلاف ذلك عن حاجة اليافع والبالغ مبلغ الرجال والنساء.

فخطاب البالغ من البشر في شئون العقيدة والتوجية والتهذيب خطاب عقلي بالدرجة الأولى، يهذب وينضج الغايات والمقاصد، ويؤهل القدرات والامكانات العقلية والذهنية لأداء أدوارها الحياتية نحو الغاية الصحيحة. أما خطاب الصغار في تلك الأمور فانه بالدرجة الأولى يُكَوِّنُ ويَنشِّئُ الطبائع والطاقات النفسية التي سوف يتصف بها الفرد في مستقبل حياته، ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :(فخياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام فقهوا)(١) فمن ربِّيَ ونُشّئ نشأة وتربية قوية قادرة سليمة، فسوف يكون عليها في كل أحواله، وسيكون فِقْهُهُ ورُشْدُهُ هو الذي يوجه تلك الطاقة والقدرة النفسية، نحو غايات الخير والاصلاح دون سواها من الغايات.

ان الخطاب التربوي التوجيهي الى الصغير هو بالدرجة الأولى عملية تكوين وبناء نفسي أساسي، أما الخطاب الى اليافع فعملية خطاب وعظي وتوجيه ذهني وعقلي، ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم:(اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك، بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام)(٢)؛ لما رأى في الرجلين من صفات القوة والشجاعة والعزم. وذلك أن التكوين والتربية النفسية والمعدن والجوهر النفسي القوى الجيد ، هو أمر في كثير من جوانبه غير المطالب والغايات؛ فالشجاعة والاقدام هما أمران غير غاية الشجاع أو المقدام اللتان يوظف الفرد من أجلهما تلك الشجاعة وذلك الاقدام . وكذلك الاخلاص والصدق والصبر ، وسوى ذلك من الصفات والمكونات النفسية، وهي غير الغايات والأهداف التي يوظف لها الأشخاص تلك الصفات والطاقات النفسية، ولذلك فالرجال أصحاب المعادن والتكوين النفسي القوي الجيد هم نفس الرجال ونفس المعادن سواء في الجاهلية أو في الاسلام، لا يختلفون الا في الغاية والمقصد ؛ فمقاصدهم الخيِّرة الاصلاحية في الاسلام ورؤية الاسلام، غير مقاصدهم في عدوانية البداوة الجاهلية ومحدودية أفقها الانساني والحضاري. والمعدن والطاقة النفسية القوية المتفوقة، هي التي توخاها الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يطلب للاسلام العزة بأحد العمرين؛ لما توخاه

الرسول صلى الله عليه وسلم من طاقاتهما النفسية ، وما تحليا به من شجاعة وبأس وقوة جنان. وكذلك كان الامر فكان العمران هما بطلا الاسلام والجاهلية، بطل الاسلام كان الفاروق عمر بن الخطاب ، وكان بطل الجاهلية هو أبو جهل عمرو بن هشام. ان رجل الدفاع والحرب، لا يختلف بالضرورة عن رجل العصابة والسلب في معايير الأداء والقدرة ، ولكنه يختلف حتماً في معايير القصد والغاية، ومرجع هذه الطاقة النفسية والصفات الشخصية التي تتسم بالقوة والاخلاص والتفاني انما ترجع الى جهود التربية التي تبذل لتنشئة الصغار من أبناء الأمم.

ان أسلوب الخطاب وتأثيره في البناء والنفس في مراحل الطفولة، مرحلة اثر مرحلة، وعاماً اثر عام، وطورا اثر طور، على نحو ما نرى من تطور الجسد ونموه، هو من أهم امور التربية التي يجب أن ندرك طبيعتها ومدي تأثيرها في بناء نفسية الطفل ، وأن نعنى بمعرفة صفات هذا الخطاب ووجوه اختلاف صفاته عن اسلوب خطاب البالغين ووعظهم وتوجيههم وتدريبهم.

ان الطفل الناشئ يحتاج منا ولا شك الى خطابٍ يَبْنِي ويَكوِّن ويغرسُ في نفس الطفل الصفات والطاقات النفسية الايجابية، التي تدفعُه الى الثقة بنفسه، والرغبة في أداء مهمته في الحياة، والاعتزاز بمهمة حياته كمسلم وخليفة مصلح في الأرض، والشوق الى النجاح فيها ، ومعرفة كنه أسرارها؛ مما يجعل شخصيته تتحلى بالقوة والثقة والاعتزاز والمبادرة ، وما يتصل بها من صفات لازمة لنجاح الأمة في أداء مهمتها، في الخلافة والمبادرة والادارة والرعاية الحضارية. فهذه الصفات هي ما ترغب الأمة في تحقيقه وهي الصفات التي يفتقدها أبناء الأمة في عصورها المتأخرة.

ان من المهم أن نجنب الطفل، في مراحل تكوينه النفسي، خطاب الارهاب والتخويف السلبي، المدمر للطاقات النفسية اللازمة لصفات الشجاعة والثقة والاعتزاز والمبادرة، وأن ننهج في الاجابة على تساؤلاته منهج الحب والتشجيع، فيما يتعلق بمفهومه ونظرته وعلاقته بالله سبحانه وتعالي الحق العدل الرحمن

الرحيم، بحيث يقبل الطفل، في قوة وفي صبر وفي تشوق وفي حب، على الله سبحانه وتعالى، وعلى الحياة ودوره فيها، وعلى الدار الآخرة ولقاء الله فيها؛ أي أنّ أساليب تلقين الصغير لمبادىء الدين وقيمه وغاياته وعقائده يجب أن تكون في مراحل التكوين الأولى، ايجابية تنمي مشاعر الحب والشوق والتطلع والانجاز؛ لأن من يحب ويتطلع ويعتز، يقبل ويؤدي ويتفانى ويضحي ويصبر، أما من يخاف ويرهب، فهو يحذر وينفر، ولا يعمل الا بالحد الأدنى وتحت ألوان من الصراع والتمزق النفسي المستمر، الذي يلازمه طوال حياته نتيجة مشاعر الخوف والارهاب التي تنفره من القبول والاقبال من ناحية وتدفعه الى الرضوخ والاذغان من ناحية أخرى، فيكون أثر ذلك ظاهراً في شخصية الفرد، حيث تتصف هذه الشخصية بعدم التكامل وعدم الانتظام والتقصير والتفاوت والتناقض والأداء بالحد الأدنى ، وعلى غير حماسة أو اتقان ، وهو ما نلحظه في صفات أكثر المسلمين في العصور المتأخرة.

واذا تدبرنا ديننا الحنيف ، أدركنا المكانة الخاصة للمسلم عند رب العالمين ، وأنه على كل الأحوال مصيره الى الجنة (من قال لا اله الا الله دخل الجنة وان زنى وان سرق)(٣) وأن الطفل المسلم غير مكلف ولا محاسب الا حين يبلغ سن النضج ، فلا يجب أن نتعجل نمو الطفل ، وأن نحمله ثقل المسئولية قبل أن يصبح معدا لها مكلفا بها، فيكون خطابه هو خطاب حب وتبشير: ينمّي صفات القوة والثقة والاعتزاز والمبادرة والاقبال على ما كانت عليه سيرة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، في رعاية الأطفال وحبهم وتقريبهم وازالة أسباب الرهبة من نفوسهم، والتي من نماذجها خطابه لابن عباس، وحمله لابن ابنته على المنبر وهو يخطب، وصبره على ابن ابنته وقد علاه في سجوده وهو امام بالمسجد، ومعاملته لأنس بن مالك ، وخطابه للأعرابي بشأن خشونة تعامله مع أبنائه الصغار. ان خطاب المسئولية والتكليف الى البالغين مبلغ الرجال والنساء من المسلمين له وقته المناسب ومرحلته المناسبة، وعندئذ سيكون فقط لهذا النوع من الخطاب أثره الايجابي في الانضاج

والترشيد، كما كان أثره مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين أسلموا وقد بلغوا في الجاهلية مبلغ الرجال بعد أن وفرت عوامل نشأتهم السابقة الصفات والطاقات النفسية المطلوبة كالشجاعة والاقدام وصدق النفس والثقة والاعتزاز وكريم النفس والصبر والمجالدة، ومن أمثال هؤلاء رجال كأبي بكر وعمر وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة عامر بن الجراح وكثير سواهم.

فالتربية الاسلامية على أساس المنهج العلمي وضوابطه يجب أن تتصدى لهم النفوس والطبائع ودراستها ورصدها ، ودراسة مراحل النمو التي تمر بها النفوس ورصد آثار التفاعلات والعلاقات التي تتعرض لها وتمر بها. ان الأخذ بالأسلوب العلمي المنضبط في ميدان منهج التربية الاسلامية وأسلوبها ووسائلها الصحيحة ، سوف يغير من أحوالها المهلهلة ويجعلها بحق مدرسة علمية لها غاياتها وأهدافها ومقاصدها الاسلامية الخيّرة ووسائلها ومناهجها المؤثرة الفعالة ، التي تحقق في الواقع الحياتي والاجتماعي الأهداف والنماذج والأجيال التي يسعى الاسلام الى تنشئتها واعدادها للحياة واعمار الأرض.

ان من المهم أن ندرك منذ البداية وقبل ضياع مزيد من الوقت، ان المدخل الصحيح الى التربية الاسلامية، ليس هو أسلوب التخويف والارهاب، واشاعة الهلع وأسباب السلبية ومشاعر القلة والحقارة والمذلة وعدم الثقة بالنفس، ولكنه اسلوب المحبة والرغبة، بدءا بمحبة الله الخالق الحق الرحيم والرغبة فيما يحب، وبمحبة الحياة ومهمة المسلم فيها، كما أرادها الله : خلافة خير وحق وعدل واصلاح، والرغبة في العمل على تحقيق ما يؤدي اليها، وبمحبة الجهاد، أداءً للرسالة واعتزازا بها، وبمحبة لقاء الله والنظر الى وجهه الكريم في الدار الآخرة، التي هي دار نعيم مقيم للمؤمنين العاملين.

فاذا ما بلغ الصغير مبلغ التمييز، وخطا نحو الشباب والتكليف والمسئولية، أخذه المربّى بالنصح والتبصير بالعواقب والمسئوليات والآثار المترتبة على الأفعال،

فيمَكِّنُ من نفسه حِسَّ المسئولية، وحِسَّ التصرف، وضَبْطَ النفس، وحُسنَ الأداء، واحترام الحقوق، وتقديس الحرمات، والسَعْيَ في الارض بالعدل والاصلاح. وبذلك تتكامل في بناء النفس المسلمة معاني التبشير والتحذير وتتكون القوة الخيرة الفاعلة المنضبطة.

في حقل التربية أكثر من سواه نرى أهمية تكامل الغايات الاسلامية وتوجيهات الوحي ومقاصده ، مع جهود النظر العلمي والتدبر العقلي في ميدان الدراسات الاجتماعية ، وسعيها لتفهم الفطرات والطبائع التي أودعها الله في النفوس والعلاقات التي تترتب على تلك الفطرات والطبائع، فتكون الدراسة العلمية للفطرات والطبائع والعلاقات الانسانية وسيلة فعالة لتحقيق مقاصد الاسلام وغاياته، التي يصبح معها الاسلام وقيمه ومبادؤه وأحكامه واقعا حيًا في النفوس والمجتمعات. وتجربة الفكر الاسلامي في عصوره المتأخرة في حقل التربية الاسلامية تبرهن لنا أنه لا يكفي أن نقصد الخير، بل لابد لنا من معرفة الدروب التي نسير فيها ليتحقق الخير.

ولعله من المهم أن نذكر أنه حتى بعد انقضاء عهد الخلافة الراشدة فاننا نجد أبناء رجال قريش كانوا يُبْعَثون الى البادية، لينشأوا فيها على صفات بداوة العرب في تلك العهود. ولم يكن أثر تربية البادية والبداوة وتنشئتها على الصغار تتعلق بالأمور البدنية فقط، ولكنها أيضا تتعلق بالآثار النفسية. فينشأ الصغير حرا طليقا قوي النفس، بلا قيود وبلا قوالب وبلا ارهاب وبلا ضغوط، تمنع نمو طاقة القوة والانطلاق والابداع في تلك المرحلة المبكرة من تكوين النفس الغضة، فتنشأ نفس الطفل قوية شجاعة منطلقة غير هيابة. وكذلك كان يفعل عامة الملوك والأمراء، في عصور بناء دولة الاسلام وحضارته ، في اعداد أبنائهم وتكوين نفوسهم وتأهيلهم للقيادة ، بكل حاجاتها من القوة والاقدام والشجاعة، وكان هؤلاء الرجال والملوك والأمراء حين يكتمل أساس بنائهم النفسي، ويصلب عودهم على الصفات النفسية المرغوبة، يستقدمونهم الى الحواضر والى المدارس، ويوضعون بين أيدي المعلمين

والمهذبين؛ لكي ينالوا على أيديهم ألوان المعرفة ويتلقون منهم آيات النصح والارشاد والتهذيب والانضاج، فتكتمل تربيتهم وتعليمهم، ويتحلون بنصيب عال من القدرة والنضج، من الشجاعة والعزة والعلم والرأي.

من المهم في مقدمات علم التربية الاسلامية أن يدرس الباحثون منهج الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا في كليات أقواله وتوجيهاته لأمته فحسب، بل وبفهم صحيح لكل قول من أقواله صلى الله عليه وسلم، والدلالة الصحيحة لذلك القول، وعدم أخذ القول على عواهنه وصرفه الى غير معناه ودلالته الصحيحة ، وما قصد اليه الرسول صلى الله عليه وسلم من توجيه القول والخطاب. وعلى الباحثين أن يدرسوا منهجه العلمي صلى الله عليه وسلم، والأسلوب العلمي والفعلي الذي مارسه في تصرفاته صلى الله عليه وسلم مع الصغار من أبنائه وأبناء المسلمين، وما أثِرَ عنه صلى الله عليه وسلم، من اتباع اسلوب الحب والرحمة والصبر والأناة في تربيتهم والتعامل معهم، حتى ولو كان في الصلاة أو على ظهر المنبر، وانه لم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم في حياته كلها ضرب الصغار، بل أنه نهى أن يضرب الوجه، مهما كانت دواعي الضرورة أو كان سن المربي؛ لما في ذلك، كما نفهمه اليوم، من أثر على التكوين النفسي والطاقة النفسية.

وان اعادة حسابات أسلوب المنهج التربوي الاسلامي والالتزام به في البحث والدراسة والدراية العلمية، يجب أن نلحظه في كافة المجالات التربوية والتعليمية، بما في ذلك ما نختاره للاطفال والناشئة، كل بحسب قدرته ومرحلته، من القراءات والمطالعات، وما نقدمه له من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. يجب أن يلاحظ في ذلك الأثر النفسي لهذه القراءات والمطالعات والارشادات، وعدم التركيز فقط على مجرد القيمة اللغوية أو الأدبية أو المعاني السامية التي تحتويها تلك القراءات والمطالعات والارشادات؛ لأن المحك التربوي في هذه المرحلة هو الأثر النفسي والبناء النفسي الناتج عن أسلوب الخطاب ومنحى الأداء ترغيبا أو ترهيبا، ومداراة أو مقارعة؛ حتى يمكن لنا أن نحقق الغاية من التربية والتوجيه على

المستوى النفسي والمستوى الذهني والعقلي لكل مرحلة من مراحل نمو الناشئة، بما يناسبها، ويعين على حسن تكوينها، وتزويد الفرد بحاجته النفسية والعقلية والعملية منها.

ان من المهم، في نهاية هذه الملاحظات الأساسية العامة في مجال التربية الاسلامية، أن نوضح أنه لا مجال للظن بالتناقض بين مفهوم الايجابية والحب والقناعة ، في تكوين الكيان النفسي للناشئة، وبين مفهوم الانضباط في سلوكهم وتكوينهم النفسي. فالانضباط والنظام هو أسلوب في العمل والتصرف، يكسبه الصغير والناشئ بالتدريب والتعويد والمثال والقدوة، وتعين عليه دوافع الفطرة الايجابية في طلب الانجاز، والرغبة في كسب رضا من يحب ويحترم؛ وهي مفاهيم ووسائل لا تناقض مفهوم الحب والتشجيع والترغيب كأساس لتربية الطفل وصياغة موقفه ونظرته الى الحياة والوجود.

إنّه يجب أن لا يفهم الحب على أنه افساد وتدليل، وأن الارهاب والتخويف يعني انضباطا ونظاما، فهذا الفهم فهم خاطئ وأسلوب عاجز؛ فما يجب أن نحرص عليه هو الحب والانضباط معا، وبأسلوب صحيح سليم، وهو الرغبة والقدرة والكفاءة معا؛ حتى يمكننا ان نجعل أبناء الأمة يتمتعون حقا بروح عمل الفريق الناجح، وما يتحلى به الفريق من قوة وكفاءة وتضامن وتفان ومن نظام وتعاون وحرية وانطلاق.

ان من المهم لقادة الأمة وعلمائها ومربيها وأصحاب الاهتمام بشئونها ان يلاحظوا أن المهمة الاصلاحية والتربوية التي يواجهونها في كيان الأمة اليوم، تختلف في بعض وجوهها الهامة عن المهمة الاصلاحية التربوية التي تصدى لها الرسول صلى الله عليه وسلم في عصر ظهور الاسلام. فالقوم الذين خاطبهم الرسول صلى الله عليه وسلم قومَ ثمَّ أقوياء ولكن علتهم أنهم قساة غلاظ أصحاب عصبيات وجهالات، أما الأمة اليوم وحال أبنائها وما يتصفون به من صفات، فهي نقيض ما كان عليه الناس في عصر الجاهلية وظهور الاسلام. الأمة اليوم أمة مريضة بأمراض

الضعف وذبول الطاقة النفسية وتفشي صفات الذل والقهر وعدم الثقة وانعدام روح المبادرة والتصدي للحياة والخلاقة.

ان المهمة الاصلاحية التربوية التي تواجهها الأمة وقادتها ليست مهمة ترويض شعوب قوية وانضاجها، وانما هي مهمة معالجة أمة مريضة ضعيفة تفتقد صفات القوة والاقدام والابداع والانطلاق.

ان المهمة الاصلاحية التي تواجهها الأمة وقادتها في أصلها وأساسها، مهمة تربوية، لإصلاح مناهج تربية أبناء الأمة واعادة بناء طاقاتهم النفسية والقضاء على صفات الخوف والضعف ونفسية العبيد، التي تكونت في أصل كيانهم على مر عصور الانفصام والاستبداد والتخلف.

*****

الهوامش

١. رواه البخاري.
٢. رواه ابن سعد وأحمد والترمذي.
٣. رواه البخاري ومسلم.